الطيف الماثل

لاح لى طيفها حين دخلت قاعة الامتحان ، فلم أكد أرى من ذاك الجمع المحتشد سوى وجهها المشرق وصورتها الحبيبة ، وروحها السامية اللطيفة تحوم حولى ، وتبارك مسعاى .

كانت هناك ... ملء المكان ، تلك التى طواها الموت منذ أعوام ثمانية ، وحُمِلتْ إلى القبور فى أمسية حزينة مساء من يوم خميس ، ثم تُركت هناك ، فى منازل الراحلين عن دنيانا ..

وبقيت يا أمى معى ، ملء قلبى ملء خواطرى ورؤاى .

تستحثين خطاى نحو الغاية التى قطعتُ مراحلها الأولى على كتفيك ، تهونين علىّ ما ألاقى من عناء وما ألقى من مصاعب ، فإذا مسَّنى الضر ونال منى الإعياء ألفيتك إلى جانبى : تشدين أزرى ، وتثبتين قدمى ، وترفهين عنى ، وتلوحين لى بسمو المطلب وجلال المقصد .

ما تخليت عنى يا أمى وأنا أجتاز الطريق الشاق وأعرّج على المرتقى الوعر ، وما خليتنى لحظةً أقف لكى أحدق ورائى فى المنحدر الصعب ، أو أحصى مشاق السير وعقبات الطريق ، ولو قد فعلتُ ، لغشينى دوارٌ كنتُ معه وشيكة أن أهم بالتراجع أو الوقوف ..

غير أنى مع ذلك افتقدتك حين شارفتُ الغاية ، حيث شعرت – وقد بلغ منى الجهد منتهاه – بحزن يعصر قلبى ، وبدلا من أن أستجمع قواى للخطوة الباقية ، وجدتنى أتساءل فى شجن وأسى : أين أمى لتشهد هذا الموقف الذى أعدتنى له وأعانتنى عليه ؟

أين هى ، لأضع بين يديها ، ثمرة لياليها الساهرة وأيامها الناصبة ، وكفاحها الباذل وسعيها الصابر ؟

أين هى ، لترى طفلتها التى حملتْها السنينَ الطوال ، حين تحمل الأمهاتُ أولادَهن أشهرًا معدودات ، ومضت بها تشق لها الطريق ، وتواجه الأعاصير ، وتتلقى عنها وخز الشوك ولطمات الأمواج ؟

فى هذا كنت أفكر وأنا أخطو إلى مكانى فى الجامعة ، لأسمع تقدير أساتذتها لجهدٍ حملتِ أنت يا أمى عبئه الأكبر ، ولأجنى ثمرةَ غرسٍ رويتهِ أنت بالعرق والدموع .

وكنتُ بحيث أتداعى تحت وطأة شجنى وحنينى وأسى ، لولا أن لمحت طيفك ماثلاً أمامى فى قاعة الامتحان ، فتماسكت وتشجعت ، ورنوتُ فى رقة وشجو إلى الطيف الغالى الحبيب .

وأويت إلى دارنا قبيل منتصف الليل ، أحمل درجتى العلمية . فدنوت فى رفق من مخدع طفلتىّ النائمتين فى سلام ، واستقبلت القبلة خاشعة ، أصلى لمن جعل الجنة تحت أقدام الأمهات ، وأحيِّى ذكرى واحدة منهن ، نشأتْ فى صميم جيل الحريم ، خلف الجدران العازلة

والأبواب الموصدة ، فلم تدرك حركة تحرير المرأة ، ولا عرفت شيئًا مما يسمونه (حقوق النساء) ، ولا سمعتْ يومًا ما نردد من (أجر العمل وحقوق العامل) ، وإنما رضيتْ بالأمومة نصيبًا من الحياة ، فعكفتْ عليها صابرة مؤمنة ، باذلة فادية ، غير منتظرة أجرًا ، ولا ضجرة بعبء ، ولا متمردة على قيد ، حتى استطاعت أن تحقق فى هذه الأمومة وجودَها الكريم ورسالتها الكبرى .

وكان حسبها أن تبذل حياتها كلها ثمنًا لرسالتها التى باركتها السماء ؛ ووجدت فيها الإنسانية منذ الأزل وإلى الأبد سرَّ الوجود ، وواهبة الحياة بإذن الخالق عز وجلَّ ..

أستودعك الله يا أمى .. سلام أنت .. وسلام عليك ..

* * *